الزراعة المصرية في الازمنة الغابرة

قرأنا بالامس في كتاب الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة باعلى الصعيد لمؤلفه ابي الفضل جعفر الادفوي المتوفى سنة ٧٤٨ انهُ كان يستغل من الفدان في ادفو ثلاثون اردبًّا من القمح واربعون اردبًّا من الشعير وثلاثة وعشرون اردبًّا من الذرة . وان عنقود العنب هناك كانت زنتهُ ثمانية ارطال . هذا ما كانت عليهِ الزراعة في القطر المصري منذ ستمائة سنة . وقد يكون في كلام المؤلف شيءٌ من المبالغة ولكن قولهُ ان محصول فدان الذرة يبلغ ٢٣ اردبًّا يرجح صحَّة ما قالهُ عن محصول القمح والشعير لان محصول فدان الذرة يبلغ الآن ٢٣ اردبًّا او اكثر . وان كان في الامكان ان يبلغ محصول القمح ثلاثين اردبًّا والشعير اربعين اردبًّا في صعيد مصر فلا يجوز ان تبدل هذه الزراعة بغيرها ولا يعذر مالك ارض اذا لم يستعمل كل الوسائل لاعادة خصب الارض الى ما كان عليهِ

ولا نعلم كم كان محصول الفدان في ايام المصريين الاقدمين ولكننا نعلم ان القطر المصري كان يمون سكانهُ وتصدر منهُ الحبوب الى غيرهِ من البلدان . فقد قال ديودورس الصقلي المؤرخ الذي ساح في القطر المصري قبل المسيح بنحو ستين سنة انهُ كان يصدر من القطر المصري الى رومية كل سنة نحو اربعة ملايين اردب من القمح عدا عن ان المصريين كانوا يكثرون من تربية المواشي لاجل لبنها ولحمها ويجزون الغنم والمعزى مرتين في السنة لاجل صوفها وشعرها وكانوا يعتنون بتربية الطيور ويفرخون بيضها في المفارخ كما يفعلون الآن

ويؤخذ مما قالهُ ديودورس ايضًا ان الاطيان كانت تخص الملوك والكهنة وقواد الجيش وان كبار الفلاحين كانوا يستأجرونها من اصحابها ويستأجرون العمال لحرثها وزرعها وخدمتها باجور طفيفة جدًّا والقطعان التي تكون فيها تخص مالكها ولكن المواشي التي تستعمل في الاعمال الزراعية تخص الفلاح المستأجر غالبًا . ويكون لقطعان المالك رعاة ونظار يرعونها ويعتنون بها واذا اعوزهم البرسيم في اطيان صاحبها ابتاعوا لها زراعة برسيم في اطيان اخرى . وللمستأجرين ان يزرعوا ما يشاؤون على شرط ان لا يكرروا زراعة واحدة تضرُّ بالارض . وكانوا ماهرين في اختيار المزروعات وتعاقبها حتى تناسب طبيعة الارض باتين ذلك على اختبارهم الشخصي وعلى ما توارثوهُ من آبائهم . ففاقوا في ذلك كل مَن سواهم من الامم المجاورة لهم . وكان الاغنياء يستخدمون البستانيين للاعتناء بما حول بيوتهم من الحدائق

والبساتين فيزرعون فيها الازهار والرياحين والكروم وسائر اشجار الفاكهة ويعتنون بامر الحياض التي تحفظ فيها المياه للري وقت الحاجة

ويظهر من الصور الكثيرة في هياكل المصريين القدماء وقبورهم ما يؤيد كل ما قاله ديودورس عنهم وان كبراءهم كانوا يعيشون عيشة الرفاهة في اباعدهم فيبنون فيها القصور ويغرسون حولها البساتين والحدائق الغناء ويحفرون فيها البرك لتربية السمك وصيده ويبنون حولها الاهراء للحبوب والحظائر للمواشي والقطعان . وان خلت تلك الصور من المبالغة فحال الزراعة حينئذٍ يفوق حال الزراعة في هذا الزمن من بعض الوجوه كما ترى عما يلي

قال ديودورس « ان الفلاحين المصريين كانوا امهر الناس في فلاحة الارض يعرفون طبيعتها وطرق ريها ومواعيد الزراعة والحصاد وكل ما يتعلق بهما ورثوا ذلك من اسلافهم وحققوه باختبارهم . وكانوا يستأجرون اطيان الملوك والكهنة والجنود بايجار رخيص ويقضون وقتهم كلهُ في اعمال الزراعة مستخدمين العمال الذين لا اطيان لهم » . ويرى في الآثار المصرية صورة رجل مشرف على اعمال الزراعة وهو راكب مركبة او واقف وعصاهُ في يدهِ وكلبهُ معهُ والمجرم من العمال مطروح امامهُ والغلق في رجليهِ واثنان يضربانهِ بالسياط كما كانت الحال منذ اربعين سنة

وكانت الارض تروى كما تروى الآن بعضها نيليًّا بالفيضان وبعضها شتويًّا بالترع وبعضها صيفيًّا بالشادوف . واكثرها يُعمَر بماء النيل عند فيضانهِ . وقد تكون فيها زراعة حينئذٍ فتمنع لها حوشة تمنع الماء عنها الى ان تنزع الزراعة منها ثم يطلق ماء الفيضان فيها ويترك عليها الى ان ترتوي منهُ جيداً وترسب فيها طبقة من الطمي . ويفرج الماء عنها حينئذٍ رويداً رويداً ويصاد ما يبقى فيها من السمك فان السمك كان كثيراً في النيل والبحيرات المتصلة بهِ وترعهِ والبرك المتصلة بها فقد قال هيرودوتس ان ملتزمي السمك من بركة قارون بالفيوم كانوا يدفعون الى الخزينة كل يوم وزنة من الفضة عنّ يعيدونهُ من السمك او نحو مئتي جنيه الى مئتين وخمسين جنيهاً . ولا تقل زنة السمك الذي يصاد من هذه البركة الآن سنويًّا عن ثلاثين مليون كيلو فاذا حسبنا ربح الصيادين من الكيلو غرشاً واحداً بلغ ربحهم في السنة ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه

ومتى نزحت المياه من الارض فاما ان يزرعوها ملقًى او تترك حتى تجف وتحرث وتزرع فاذا كانت الارض واطئة وداست المياه عليها زمناً طويلاً زرعوها ملقًى من غير حرث وذلك بان تبذر النقاوي فيها وتطلق عليها القطعان حتى تدوسها . قال ديودورس انهم كانوا

يطلقون عليها البقر او الغنم او الحمير او الخنازير وقال هيرودوتس ان المصريين لا يضطرون ان يحرثوا ارضهم ويهدرها كغيرهم من الامم بل يكتفون بغمرها بالماء وحتى ترح الماء عنها يبذرون فيها البذار ويطلقون الخنازير عليها حتى تدوسها . لكن الآثار الباقية تدل على ان هذا الاسلوب لم يكن بالاسلوب الوحيد بل كانوا يحرثون الارض احياناً كثيرة ويهدرنها غير ان حرثهم لما كان سطحياً لا عميقاً . قال ديودورس وكولوملاً [1] ان المصريين كانوا يحرثون ارضهم حرثاً سطحياً بالة قليلة الغور ويتبع المحراث رجل يهدم معزقة من الخشب لكسر القلاقيل

ولا يزال المحراث المصري خشباً لا يغور في الارض الاَّ قليلاً . اما المعزقة فكانت عودين من الخشب يربطان من الطرف الواحد ويوصل بينهما بحبل او بعود لين يفتل على نفسه حتى لا ينفصلا وقت العزق . ولم توجد محاريث ولا معازق فيها شيء معدني ولكن رؤوس الفؤوس كانت من المعدن وكان بعضها لقطع الاشجار وبعضها لعزق الارض

وكانوا يضعون التقاوي في سلة ويبذرونها على الارض بعد حرثها او قبل دوسها بالبهائم واذا كانت المزروعات لا تحتاج الى الري كالزراعة الشتوية في الوجه القبلي الآن تركوها الى ان تجني واذا كانت تحتاج الى الري اوصلوا اليها الماء بالنزع ورفعوه بالشادوف او بالادلي

ويظهر مما قاله بلينيوس انهم كانوا يسمدون الارض بسماد فيه نفرات كما يسمدونها الآن بالسباخ الكفري . وكانوا يزرعون كروم العنب في الاراضي الصخرية او الحجرية وقد يضيفون الرمل الى الارض الطينية لتصير صالحة للزراعة . والظاهر مما يوجد من آثار الكروم في الاراضي العالية في الفيوم انهم كانوا يرفعون اليها الماء بطرق صناعية لريها لانها فوق حد مياه الفيضان

والنباتات التي كانت شائعة عند المصريين الاقدمين هي القمح والشعير والذرة والارز والفول والعدس والحمص والجلبان والقرطم والترمس والباميا والفجل والسمسم والنيل والخردل والصعتر والهندباء والكتان والقطن والسنا والحنظل والكمون والكزبرة والشاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم والنيلوفر والبردي والقلقاس . وكانوا يستخرجون من الحلبة الدهن المشهور المسمى تلبنون ويستخرجون الزيت من بزر القرطم والمسيخ الاصفر من زهره . وكانوا يزرعون شجرة الخروع ويستخرجون الزيت من بزرها بعصره او باغلائه بالماء كما قال هيرودوتس

(١) هو اعظم من كتب عن الزراعة من الرومانيين وكان في القرن الاول المسيحي وكتابه في الزراعة في اثني عشر مجلداً

١ و ٢ و ٣ رجال يسوقون المعزى ٤ المعزى تدوس الحنطة وقت زرعها ٥ رجل يمنع عربها ٦ الزارع يبذر الحنطة وفوق المعزى كلمة سكاي بالمير وغليفية ومعناها الفلاحة والرسم كلهُ من مدفن قرب الاهرام

١ رجل يكسر القلاقيل بمحول يعد الحرث ٢ الحراث ٣ السائق ٤ برميل فيهِ البذار او ماء للشرب ٥ رجل واقف يكلم حارثاً آخر فوق الرقم ٦ والرسم من قبور بني حسن

١ رجل يضع التقاوي في زنبيل ٢ رجل يبذر التقاوي وراء الحراث ٣ الحراث والرسم من قبور الملوك

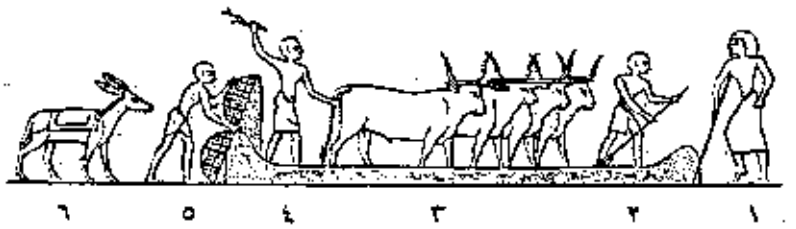

١ ناظر ٢ رجل يحرك السنابل في الجرن (البيدر) ٣ اربعة ثيران تدوس ٤ سائقها ٥ رجل يلقي السنابل من سبتين كانا محملين على الحمار ٦ والرسم من طيبة

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧

١ حصّاد يحصد القمح ٢ حصّاد آخر وضع منجلهُ على كتفهِ واخذ كوبةً ليشرب منها ٣ و ٤ اثنان يلتقطان الحبوب الواقعة ٥ اثنان يحملان السنابل في شبكة ٦ و٧ اثنان احدهما يلقي السنابل في الجرن والآخر يكومها

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩

١ رجلان يذريان الحنطة ٢ رجل آخر يحركها بمذراة ٣ ثلاثة ثيران تدوس الحنطة ٤ رجل يسوقها ٥ رجل يشرب من قربة ماء معلقة بشجرة ٧ كاتب يكتب مقدار اكيال الحنطة ٨ الكيال ٩ كاتب آخر لضبط الحساب وهذا الرسم والذي قبلهُ من طيبة

١ ٢ ٣ ٤ ٥

١ رجل يقلع نباتاً كالذرة ٢ رجل آخر ينفض التراب من كعوب النبات المقتلع ٣ رجل يحزمهُ حزماً ٤ رجل يحملهُ من الغيط ٥ رجل يضربهُ على آلة كالمشط لتقع الكيزان او الحبوب منهُ

وكانوا يدَّهنون بزيت الخروع على ما قالهُ سترابون المؤرخ كما يفعل البرابرة الآن . وقال بلينيوس ان مصر كانت مشهورة باستخراج الزيت من اللوز المر . وكان عندهم من الاشجار النخل والدوم والجميز والتين والرمان والزيتون والخوخ . الدرافن واللوز والسيق او السدر والخيط والخروب والطرفاء والاثل والسنا والخروع والآس والسنط والسيال والفتنة والطلح واللبخ والاقليق . والظاهر ان الاشجار المثمرة وغير المثمرة كانت في عهد المصريين الاقدمين اكثر منها الآن

وكانت حدائقهم كثيرة الازهار والرياحين وكانوا يربون النحل لاجل عسلهِ وشمعهِ

ويؤخذ مما قالهُ ديودورس وغيرهُ من المؤرخين الاقدمين ان المصريين كانوا يعتنون اعتناءً خاصًّا بزرع القمح والشعير . وقال بلينيوس ان اجود قمحهم كان الصعيدي . وكان قمحهم من النوع الذي في سنابلهِ حبك كالقمح المصري الآن وكانوا يحصدونهُ بمناجل سنة من تحت السنابل وينقلونهُ الى الاجران (البيادر) في سلال او في شبكة كبيرة تعلق بعتلة يحملها رجلان وتطرح السنابل في جرن (بيدر) مستدير وتدار عليها الثيران تدوسها بارجلها حتى تُدرَس ثم يذريها الرجال بالمذاري وتنقل الى الاهراء وتكال و يدوّن مقدارها كاتب الزراعة . و يكون بين العمال رجل يطربهم بالغناء . وقد وجد شمبوليون اغنية من اغاني السرّاسين في قبر مصري قديم يقال فيها ما ترجمتهُ « ادرسي لنفسكِ ادرسي لنفسكِ يا ثيران ادرسي لنفسك ادرسي لنفسك كيل لكِ وكيل لصاحبكِ »

اما قصل القمح فكان يقطع من اسفلهِ ويستعمل علفًا للمواشي مع دريس البرسيم في فصل الخريف حينما تكون المراعي مغمورة بمياه الفيضان

وتحرث الارض بعد ضم القمح منها وتروى ريًّا صناعيًّا بالشواديف وتزرع زراعة صيفية . ولا يكرر زرع القمح فيها سنة بعد سنة لئلاَّ تضعف فتزرع سنة قمحًا وسنة فولاً او برسيمًا دواليك لكي تستريح و يزيد خصبها

وكان عندهم نبات يشبه الذرة البلدية في شكلهِ ولونهِ يزرعونهُ مع القمح ولكنهم لا يحصدونهُ بالمناجل بل يقلعونهُ قلعًا و ينزعون كيزانهُ منهُ بآلة كالمشط

وكانوا يزرعون الكتان و يجمعونهُ و يعطنونهُ و يستخرجون اليافهُ و ينزلونهُ و يحوكونهُ وذلك كلهُ ظاهر في الصور المحفورة في آثارهم وسنأتي عليها في مقالة صناعية خاصة